خوان بيّورو

محاضرة في المطر

ترجمة: مارك جمال



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
| مرايا



TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com takweenkw

takween_publishing TakweenPH

www.takweenkw.com

«وأنصتي إليَّ كمن ينصت إلى وقع قطرات المطر
فلا أنتِ منتبهة ولا أنتِ شاردة».

أوكتافيو باث

(مُحاضِرٌ أمام طاولةٍ استقرَّ فوقها كوبٌ من الماء. الرجل هزيل، أشيب الشعر، يتراوح عمره بين الخمسين والسبعين عامًا. لديه بضعة كتب، وُضِعَت بين طياتها فواصل إشارةً إلى الصفحات التي توقَّف عندها، زِد على ذلك محفظةً تضمُّ أوراقًا مُبعثَرة. يقرأ للحظات، ويبتعد عن الصفحات للحظات، فلا يبدو عليه أنه يجهل فحواها وحسب، بل يبدو وكأنه يعيبها أيضًا. وعلى المكتب، تتجلَّى في بعض التفاصيل مظاهر الاستخدام الشخصي غير المعهودة في مُحاضِرٍ يلقي محاضرته على الملأ. ربما كانت هناك كرة تنس يتلهَّى بها المُحاضِر، أضف إلى ذلك فأرًا يعمل بالزنبرك، وبضع قطع من الكعك. أما حضور تلك العناصر المنزلية، الذي يبعث على الحيرة في البدء، فيعزِّز المغزى النهائي الذي تنطوي عليه الحجرة، ما يسري بالمثل على ثياب المُحاضِر، الثياب التي لا تليق بلقاء عام على نحوٍ ما).

(**المُحاضِر**): لقد أضعتُ الأوراق! (**يقلّب الصفحات**). أجل، لقد أضعتُ المحاضرة. أطلبُ المعذرة. إن فَقَدَ المرء أوراقه، فقد وقاره. لا أدري ما الذي يجري لي. إن حياتي كلها تدور حول النظام، فأنا أشتغل في ترتيب مكتبة، وعلى الرغم من ذلك، تنسلّ الأشياء من بين يدَيّ. سأتابع المحاضرة، يمكنني ذلك. أفضلُ المحاضرات ما كان منها مُرتجَلًا. ومع ذلك، فمَن ألقى محاضرةً بلا نصٍّ ثابت، سار على الحافة، لأنه في العبارة التالية ربما فقد التركيز وسقط في الهاوية. لا أحد يفكّر في المجازفات التي يخوضها المُحاضِر، تلك التي ينطوي عليها شرود الذهن -فجأةً، وبلا أدنى سبب- أو المخاطرة بأن ينسلّ من ذهنك اسمٌ، كما تنسلّ من بين يدَيّ الأشياء. إن لم تكُن المفاتيح، فهي الحافظة، أو أوراق المحاضرة. أين أضع الأشياء؟ أو بالأحرى: فيمَ أفكّر حين أترك الأشياء في موضع ما؟ أضع فنجان القهوة على رفّ الكتب، غير أن ذهني في مكان غير المكان، فلا يسجِّل تلك اللفتة الضرورية، على خلوّها من الشغف تقريبًا. وهكذا يتبخَّر فنجان القهوة من ذاكرتي، لأنه لم يكُن في ذاكرتي قطّ، لو شئنا الحقيقة. أين أكون حين أنسى الأشياء القائمة أمامي؟

أما ضياع النظارة، فأسوأ الأمور. كيف لي بالبحث عنها وأنا لا أرى شيئًا؟ سوف تنتهي بي الحال وأنا أتلمَّس طريقي في العالَم. غير أنني لا أختلق أعذارًا، وسأتابع المحاضرة.

لم أفكّر في قراءة محتوى الأوراق، وإنما الارتجال مستعينًا على ذلك بالمسودة. فأنا في حاجة إلى تدوين الترتيب الذي أسرد

به الموضوعات، والاقتباسات، والأسماء المُراوِغة. الأمر يشبه قائمة مشتريات السوبرماركت قليلًا. تراني نسيتُ الأوراق في السوبرماركت؟ كنتُ هناك صبيحة اليوم، وبحوزتي عدد من الأوراق التي كتبَت فيها يولا، خادمتي، كما أذكر جيدًا. أجل، من المُؤكَّد أنني أخذتُ جميع الأوراق ومضيتُ بها إلى السوبرماركت، هناك حيث لم أفكِّر ولو لحظة واحدة في الأشياء الماثلة أمام عينَيّ. إذ تراصّ أمامي كَوْنٌ عشوائي مِن أوراق السَّلق، والمُنظِّفات، ولُبّ النخيل، واللحم المفروم. مِن المُؤكَّد أنني تركتُ ملاحظاتي هناك...

ربما لا يكون الأمر على هذا القدر من الأهمية، فالمحاضرة مُختبَرٌ ذهني، يتكشَّف رويدًا رويدًا أمام الحضور، والمُتحدِّث أول المتفاجئين به. لذلك يحسن بي أن أفقد الأوراق.

تتناول ندوتي موضوعَ المطر. في الوقت الراهن، حتى رجال الأعمال يتحدَّثون عن «مطر الأفكار»، أي «العصف الذهني». وهكذا تُبتذَل الصور المجازية.

أما أنا، فلن أتكلَّم عن «مطر الأفكار». إذ ينصبُّ اهتمامي على فهم المياه التي جرَت في مخيلة الشعراء. ولسوف أستهلّ حديثي بعيدًا، بالحديث عن «كهف الأصل»، المطهر، لكاتبه دانتي.

يتحدَّث دانتي عن وظيفة الخيال، بعد التأمُّل في ألم «الغاضبين»، أصحاب الطباع الحادة العالقين في سريرة النفس (أولئك الذين أرى فيهم ذاتي إلى حدٍّ بعيد، والشيء بالشيء يُذكَر). حتى في أسوأ

اللحظات، والزنازين الأشدّ قسوة، تسمح لنا إحدى الغرائز بالهرب ذهنيًّا، والتحليق، وتجاوز الأحجار والجدران التي تحبسنا، وبلوغ السماء حتى نستخلص منها شيئًا. أي شيء نجني بفضل الخيال السامي؟ المطر! الكائن الحُرّ قادر على تغيير السماء. ومَن أعمَل خيالَه تسامَ عاليًا، في نشوة. ولذا فالخيال هو تلك المنطقة حيث يبدِّل الشاعرُ الطقس، حسبما جاء في قول دانتي: «ينهمر المطر في الخيال السامي».

ربما كان ذلك هو السبب الذي يجعل الأشياء تنسلّ من بين يدَيَّ. لا أبلغ مرتبة الشعراء، ولا أملك إضفاء الوجاهة على نسياني إذ قلتُ إنني أفكِّر في الأشعار، ولكن هناك شيئًا يُبعِدني عن الواقع. من المُؤكَّد أنني أكثر سعادة في شرودي، هناك حيث الخيال السامي، ولكن الضريبة التي أدفعها: فقدان النظارة وفنجان القهوة الذي يبرد على رفّ الكتب.

الأدب هو ذلك المكان حيث ينهمر المطر. ولقد كرَّستُ زمنًا طويلًا من حياتي لجمع المظلَّات الأدبية. كما «أحرقتُ أهدابي» بحثًا عن الاقتباسات. أعرف أنها عبارة عفا عليها الزمن، تسبقني في العمر، وتعود إلى ذلك الزمن، لمَّا كان المرء يقرأ على ضوء الشموع. ولكن أهداب القرَّاء العظام ما زالت تحترق. إذ تحترق الآن بالاشتعال الذاتي، وتشبّ فيها النار حين يسطع وهج النصوص. كدتُ أفقد أهدابي كلها، حتى لَيقول الناظر إنني لم أحظَ بأهداب قطّ. ولكن ذلك غير صحيح: إذ قدَّمتُ أهدابي قربانًا، مثلما قدَّمتُ

بصري قربانًا. المكتبة مصرف العيون، ففيها تُودَع النظرات التي يتبرَّع بها القرَّاء.

أحيانًا، يتحالف المطرُ ومحاضراتي، إذ تنهمر سيول جارفة في هذه المدينة. «إنها تُمطِر كما يُمطِر الرَّب»... «وكأن المطر ينفلت من قفصه لأول مرة»، هكذا قال نيرودا.

مِن الناس مَن يحضر وينصت إليَّ لمُجرَّد أنها تمطر في الخارج، ولأنه لا يريد أن يبلِّله المطر. بعضهم يحضر مُبتلًّا. أراهم يتركون رقعةً مُبلَّلة تحت مقاعدهم. وبعضهم لا يحضر لسبب غير النوم، أو النبيذ الذي يُقدَّم بعد المحاضرة (في حال قُدِّم النبيذ، أو ذلك السائل العطن الذي يُصَبّ في أكواب تليق بالمستشفيات، ويسبِّب التليُّف على الفور).

(يتوجَّه المُحاضِر بالحديث إلى أحد الحضور).

مَن أكون في نظر ذلك الشارد الذي يسعى إلى الاحتماء من المطر بجريدة، فيصل إلى القاعة وقد التصق شطرٌ من الملحق الرياضي بوجنته؟ إنه لا يعرفني، ولا يهتمّ بالموضوعات التي أطرحها، ولكن حتى ذلك الشخص قد ينشأ بيني وبينه رابطٌ ما. إن المحاضرة لون أدنى من ألوان الأدب، ولكنها تسمح بوصول أفكار بعينها إلى قلوب المستمعين. حذار، فأنا لا أقول «رؤوسهم»، وإلَّا كان ذلك ضربًا من المغالاة في الطلب. يكفيني أن يجلس أحدهم وينبض قلبه بطريقة أخرى. يحقّ للقلب أن ينعم بمفاجأة.

(يشرب ماء).

إن حيلة المُحاضِر الكبرى: أن يشرب الماء. الأمر الذي يُظهِر أنه ممسك بزمام الموقف، كما يُشعِره بالارتياح. وربما لجأ المُحاضِر إلى الوقفة أيضًا.

(وقفة).

أعيش وسط الكتب. أعرف دورتها، وطريقة ترتيبها، وصعوبة الفوز بها والحفاظ عليها. أعمل في مكتبة. في المستقبل، ربما خُزِّنَت جميع الكتب على لوح في وضع التشغيل، وتساقطَت الحروف منه كالمطر المنعزل. لعلَّني واحد من أواخر المُقرِضين الذين كانوا يؤلِّفون بين الناس عن طريق الكتب. أعتقد بأنه لن يُستغنَى عنا تمام الاستغناء. إن الكتب الورقية ترغم الناس على التواصل، إذا انتقلَت من يد إلى يد. وما دامَت الحاجة إلى العثور على يدٍ أخرى قائمة، فالكتب الورقية باقية. وأهم ما في الكتب الأيدي التي تقدِّمها. **(وقفة)**. لا يجب عليَّ التطرّق إلى هذا. **(وقفة)**.

أمضيتُ حياتي في ترتيب المكتبة، فبعثرَت الكتب حياتي.

(يبدو أنه يخصّ أحد الحضور بالحديث).

لعلّك تتساءل عمَّا إذا كانت فكرةُ تأليف كتاب قد أغوَتني، وعمَّا إذا كنتُ أرغب في الانتماء بدوري إلى ذلك المُتحوِّر الراقي من الثدييات: أي المُؤلِّف. كلا البتة! لستُ في حاجة إلى وسمِ كتاب باسمي، كما تُوسَم الأغنام المنساقة إلى المجزر. لأن تلك

هي السوق، ولا تقولوا لي شيئًا غير ذلك. إن المُنجِّم الذي يداوي الوحشة بمشروب ساخن يُصنَع من شعيرات الذرة قادرٌ على وضع كتاب أنجح كثيرًا من ذلك الذي يكتبه مُؤلِّف نابغة. والنجاح معيار المُغفَّلين.

أعشق الكتب! ولكني لستُ في حاجة إلى أن يقترن اسمي بأيٍّ منها. أتدرون كم علكة ملتصقة بصفحات الكتب وجدنا في المكتبة؟ لا يجب على الكائنات المُجترَّة أن تقرأ. يبدو لي من المدهش أن إحدى معدات البقرة تُسمَّى «المعدة الورقية»[1]. أيّ عالمٍ لغةٍ بيطري اقترف تلك الفعلة المشينة؟ إذن فالمضغ والقراءة أمران متطابقان. وهنا يأتي دور الفئران (**يرى أحدًا وسط الحضور**): إنهم أعداؤنا المُشترَكون. ولكنهم على الأقل صادقون: إذ يمضغون الكتب، ولا يدَّعون قراءتها.

(يشرب ماء).

سأقولها بالطريقة الآتية: لستُ علكة، ولا أرغب في الالتصاق بأحد الكتب عنوة. لو كان لديَّ ما أقول، لقلتُه، ولكن الضرورة لا تقضي بأن يُختَم أحد الكتب باسمي. ولقد حلّ مالارميه تلك المسألة بقوله: «إن العالَمَ قائمٌ على قيد الوجود حتى يصير كتابًا». بل إن كل ما يحيط بنا كتاب، والمكتبة نبذة توجزه للقارئ.

---

(١) تجدر الإشارة إلى وجود تطابق تام بين كلمة «كتاب» في اللغة الإسبانية ومصطلح «المعدة الورقية»، الذي يُطلَق على واحدة من معدات البقرة الأربع. فكلاهما يُسمَّى «ليبرو» («Libro»). (المترجم)

(ينظر إلى ساعته...).

في مضمار الثقافة، لا وجود للمهمّات الصغيرة، حسبما رأى ألفونسو رييس، الذي كان يمتلك مكتبة عظيمة، والذي أحسده على كرسيه، إذ طلب صنع قطعة أثاث للقارئ الكامل. كانت للكرسي ذراعان واسعتان من الخشب المصقول، وحامل مُخصَّص للكتب الثقيلة، فضلًا عن حامل آخر للكتب الأصغر حجمًا، كما اشتمل على منفضة سجائر، ومسند لوضع الأكواب، وصندوق للاحتفاظ بالعدسة المُكبِّرة، ومصباح مثالي. كان كرسيه صرحًا للسكون. فلا قراءة من دون سكون. أما ذلك الذي يزحف النمل على مُؤخِّرته، فعسى ألَّا يجلس للقراءة، وليذهب في نزهةٍ بصحبة النمل! لا بدّ أن يبقى المرء ثابتًا أمام الصفحة، مسيطرًا على التوتّر: لأن حراك الذهن يتطلَّب سكون الجسد. ولا تحدِّثوني عن وضعية تمثال «المُفكِّر»! إن ذلك الصنف من الذكاء مُوجَّه إلى السائحين. ربما كان النحَّات رودان عبقريًّا، ولكني مصدومٌ لأنه قد ابتدع ذلك النمط البدائي. لو انتبهتم إلى ذلك التمثال، لوجدتم كل ما فيه عاديًّا. فالجسد جسدُ مُسافِرٍعلى متن حافلة، أبعد ما يكون عن الاستثنائية، ولكن الاتكاء بالذقن على قبضة اليد لفتةٌ أراد بها النحَّات أن يضفي على التمثال رقيًّا **(يقلِّده المُحاضِر)**، يكاد يبلغ درجة السموّ. حقًّا! أرجو قليلًا من الاحترام لمادة الدماغ الرمادية!

لا يُوجَد الذكاء إلَّا في حالة طليقة، عفوية، ولا يمكن أن يكون الذكاء مُجرَّد وضعية.

(يبدو أنه يتوجَّه بالحديث إلى أحدهم).

وأنت يروق لك السكون. كما لو كنتَ قطعة من الزينة. فها أنت تجيء، وتستقرّ، وبهدوئك تجعل الأجواء أفضل مما كانت عليه. ولكن ذلك ليس بالشيء المُفتعَل: لأنك لا تجلس في وضعية بعينها.

(وقفة).

تتناول محاضرتي المطر، كما سبق أن قلت (**ينظر إلى الأوراق التي استقرَّت فوق الطاولة، في محاولة منه لاستعادة السيطرة**).

تعرَّضَت المكتبة لتهديد المطر. إذ جاء علينا وقتٌ عانينا فيه من تسريب المياه، فألِفتُ القراءة والدلو إلى جواري. لم يكُن من السهل التغلّب على ذلك الصوت: «بلو، بلا، بلو، بلا!». كانت قطرات المياه تتساقط وكأنها من الزرنيخ، وكأنها سمٌّ إيقاعي: «بلو، بلا!». نُبِّهنا إلى عدم إمكانية عزل المياه حتى تنقطع الأمطار، فوضعتُ السدَّادات في أذني. في البدء استعنتُ بسدَّادات من المطَّاط، مُنفِّرة الملمس واللون، تبدو وكأنها حبَّات مُشِعَّة من الحمّص، فلم تُجدِ نفعًا. ثم استعنتُ بسدَّادات من الشمع تتَّخذ شكل الأذن كأنها بشرة ثانية، وتبلغ من الجودة حدًّا جعلها تعلق في داخل أذني، وأفضى بي إلى عيادة الطبيب. ذهبتُ إلى الطبيب بسبب دلو من الماء!

(يشرب ماء).

قرَّرتُ التأقلم. والغريب أنني أفلحتُ في ذلك. إنه انتصار العقل على حماقة الواقع. لم يختفِ وقع قطرات الماء تمامًا، وإنما صار صوتًا ناعمًا في الخلفية: «بلو- بلا»، إنه بندول الإيقاع الذي كنتُ أقرأ على صوته. ولمَّا انتهى تسرّب المياه أخيرًا، كدتُ أفتقد ذلك الصوت الخافت.

العقل لا تُكشف رموزه. أحيانًا، أذكر في الليل تلك الرفقة التي أهداني إياها وقعُ قطرات الماء على مدى صفحات طوال... لم يعُد وقع قطرات الماء يبدو لي سمًّا، وإنما بات شيئًا حسنًا على ما فيه مِن حزن. إنها «الدمعة الكامنة في كل قطرة تنهمر»، حسبما كتب ليوپولدو لوغونيس، ذلك الذي لقي ميتةَ شاعرٍ أصيلة: إذ حبس نفسه في حجرة فندق بمنطقة الأنهار القريبة من بوينوس آيرس، ثم أعدّ لنفسه مزيجًا لا يُقاوَم من الويسكي والزرنيخ. وهكذا امتزج في فمه الموت واللذة.

بالمطر يتحرَّر الشعراء من العالَم، ويثيرون في النفوس شجنًا هيِّنًا على النفس، يليق بيوم غائمٍ، حين لا تُعتبَر حتى أسوأ الأشياء مُروِّعة تمامًا. هكذا يتخيَّل الشاعر ثيسار باييخو أنفاسه الأخيرة: «سأموت في باريس تحت وابل من المطر، في يوم تحضرني ذكراه قبل أن يجيء». جميل هو الحزن الذي يمكن تذكّره. والشاعر يستبق نهايته وكأنها شيء قد لقيه في ما مضى، بل ويذكره أيضًا، ذات خميس، تحت المطر. إنه الخيال السامي.

كان في وسعي البدء بنصّ «مطر مائل»، لـفرناندو بيسوا، ذلك المطر المُنهمِر بالكتمان الذي تحلَّى به الشاعر في حياته. فرناندو بيسوا: ذلك الشخص ذو الصوت الخفيض، الذي عاش على المال المُقترَض في قبو أحد دكاكين الألبان، وقضى نحبه كمن يطلب المغفرة. وقال آخر ما قال: «أعطوني نظارتي». إنها رغبة أخيرة لقارئ، يريد أن يقرأ في الآخرة. أفضِّل تلك العبارة على هذيان غوته الكهربي، الذي قال: «نورًا! مزيدًا من النور!». تحلَّ بقليل من التواضع، ربَّاه! ها هو المُخلِّص يطلب وميضَ برقٍ من السماء، في حين يقنع الشاعر الأصيل بنظارة. لا أنتقد غوته، ولكن الأجيال التالية، التي عادةً ما تغرق في الابتذال، تنسب إليه عبارةً أشدّ وقعًا من أن يدلي بها رجل محتضر.

في المطر تتجلَّى دقائق الأشياء، ولذا كان فرناندو بيسوا يحبّ المطر المائل، لا المطر المُدمِّر، المُدوِّي. ذلك أن المطر المائل يتساقط على استحياء، كمن يُخرِّب قليلًا، مِن دون أن يفسد شيئًا. إن ذلك المطر جميل في حزنه.

المكتبة مطرٌ ينقطع، غير أنه لا ينقطع طويلًا. والكتب في حراك أبد الدهر. لا بد من العثور على مكان لها. يصل كتاب جديد، فيغدو لزامًا عليك أن تزيح الكتب الباقية كلها. لا أدري في أي الأمرَيْن قضيتُ وقتًا أطول: القراءة أم نقل الكتب.

لقد أُصِبتُ بألم الظهر الخليق بعلّامة، مع أنني لم أقرأ كثيرًا بقدر ما فعل أولئك الخبراء الذين يلمّون بكل شيء عن موضوع في غاية

الدقة، ولكن ظهري يؤلمني بقدر ما تؤلمهم ظهورهم. أمضي نصف يومي منحنيًا، مُكِبًّا على القراءة، ثم أمضي النصف الآخر منحنيًا، مُكِبًّا على رصّ الكتب. وفي حالتي، أخفقَت الإبر الصينية وجلسات المساج ومُسكِّنات الألم. ولم يعُد هناك مِن سبيل إلى إصلاح ما أفسدَته القراءة في ظهري. غير أن بعض الشرور أفدح من بعض، وأنا لا أشكو حالي...

عانَت سوليداد حساسيةً من القراد، والكتب تجلب القراد. كما أنها عانَت حساسيةً من الفئران، والكتب تجلب الفئران أيضًا. أعتقد بأنها عانَت حساسيةً مني أنا، في قرارة نفسها. لم أعرف مَن يفوقها استبدادًا. في كثير من المرات، أسائل نفسي كيف تقبَّلتُ حضورها.

تعمل يولا خادمةً غير مقيمة في بيتي، فتغسل الثياب، وتطبخ، وتكتب قائمة المشتريات، ثم تذهب. أما سوليداد، فعاشَت معي. كانت مُتسلِّطة. مُتسلِّطة قصيرة القامة. سمح لها طولها بتنظيف الأرفف الأربعة الأولى بمنفضتها. أما الأرفف الباقية، فتعهَّدتُ أنا بتنظيفها. كانت تمتعض لأنني لا أنظِّف بقدر ما تفعل هي. ولذا كان أنفها يمتلئ بالغبار.

كنتُ إذا عدتُ إلى البيت أراها وقد شهرَت منفضتها عاليًا، وكأنها تمثال يرمز إلى الصحّة. إنها رقيبة الكتب. تعرَّفتُ إليها، فراقني حزمها، وقدرتها على التنظيم، وشخصيتها القوية التي لا

تقبل الجدال. كانت نظراتها قوية إلى الحدّ الذي جعلني أفكّر أن الكُتب، أمام عينَيْها، تُرتَّب من تلقاء نفسها. ولم أخطئ في ما ذهبتُ إليه. إذ عملَت على ترتيب الكتب بتفانٍ لا يتحلّى به إلّا مَن يمقتها، تلك الكتب التي أوقعَتها سوليداد في الأسر، وقيَّدَتها بقسوة. كان جدّها زعيمًا هنديًّا في صحاري الشمال، وشخصية بارزة من شعوب التشتشميكا. وهكذا اكتملَت نظرة سوليداد شيئًا فشيئًا على مدى أجيال من شعوب التشتشميكا التي درجَت على الأمر والنهي. ليس هذا بالشيء المثير، أعرف. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ أراها بعد أن نأوي إلى الفراش وقد أضاءها المصباح الذي أقرأ على ضوئه، فتكتسب بشرتها درجةً رائعة ضاربة إلى الحمرة، درجةً تحت الحمراء. مثلها كمثل رمال المريخ. أُعجِبتُ بثغرها القوي. ثغر الوغدة المُتسلِّطة، الذي يتراخى فجأةً، بشهوانية تكاد تزرع الخوف في نفسي. ربما كان القبح مزية إذا عرف المرء كيف يحتمله، ولقد جعلني ثغرها الصلب أحسّ بأنني صاحب مزايا.

قلّما تفوَّق شيء على استسلام المرأة التي أمضَت يومها كاملًا بمزاج عكر. إنها مرتبة عليا من مراتب النصر، كأن يكتشف المرء واحةً بعد أن قطع الصحراء. وهكذا كانت سوليداد تترك في نفسي ذلك الأثر المُتباين: اللذة المُؤجَّلة طويلًا، شبه المستحيلة، النابعة من مزاجها شديد السوء.

لي روح قادرة على تجاهل قطرات الماء المُتساقِطة في الدلو، وعلى اشتهاء قبلة امرأة مُتسلِّطة من شعوب التشيروكي، امرأة تلين

في خاتمة المطاف، ولكن روحي عجزَت عن تحويل سوليداد إلى دولثينيا، التي جاء ذكرها في دون كيخوته. لقد أضفى دون كيخوته سمةَ الكمال على عاهرة، وتخيَّلها أميرة. أما أنا، فتمنَّيتُ لو امتلكتُ هذه الموهبة معكوسةً، فأُضفي سمةَ الابتذال على سوليداد، ولكني لم أتمكَّن من الانحدار بها إلى درجة الشبق في كل مرة.

(يتوجَّه بالحديث إلى أحدهم).

إنه اعتراف حميم، أعرف ذلك. ولكننا تقاسمنا هذه المساحة منذ زمن.

(يشرب ماء).

واجهَتنا مشكلةٌ تحريرية أنا وسوليداد: فحيثما أردتُ استخدام «أداةَ وصل»، كانت هي تستخدم «جملة اعتراضية». كانت باردة، منغلقة على ذاتها حتى العنق، هكذا، إلى الحدّ الذي كان يجعلني أحسّ بالإثارة إذا تخيَّلتُها وقد تملَّكَتها فورةٌ جنسية جامحة. ولكن صلابتها كانت أقوى من الحيل التي لجأتُ إليها. وفي النهاية، قنعتُ منها بالنذير الكامن في اسمها. Nomen est omen، «إنما الاسم مصير»، حسبما قال اللاتينيون. ولقد كان اسم سوليداد مصيرًا[1].

كانت سوليداد تضع على أنفها لثامًا، لئلّا تتنشَّق الغبار، فتبدو وكأنها قاطعة طريق من الغرب الأمريكي. بل إنها بلغَت حدّ النوم باللثام. نالَت سوليداد نصيبها من المعاناة، لا أنكر ذلك. فحتى المطبخ لم يخلُ من الكتب. ولقد رفضَتها كلها على حدٍّ سواء، بغضب سخيّ. لم أرَها وهي تقرأ كتابًا واحدًا قطّ. أي شيء عساها رأت في

(١) جدير بالذكر أن سوليداد «Soledad» تعني وحدة أو عزلة باللغة الإسبانية. (المترجم)

شخصي؟ لا أدري. لعلّه الأمان الذي يبثّه في النفس شخصٌ أسير.
لم أبرح مكاني قطّ، إذ جرَت حياتي بين المكتبة والبيت، بيتي الذي
يُعَدّ مكتبة أخرى.

رأيتُ من الناس قلّةً، وناء كاهلي بحمل الروتين... وقعتُ
أسيرَ الكتب التي عاملَتها سوليداد كالأسرى! أفترض بأن ذلك ما
راق لها. وللناس مذاهب.

ذات يوم عطسَت وقالت إنها راحلة. حتى الأمان يشقّ على المرء. أرادَت سوليداد أن ترى العالَم. فاشترَت تذكرة سفر إلى ألاسكا. لم أشتبه يومًا في أنها تريد رؤية حيوان الفظ البحري وجبال الجليد. بل إنني، في واقع الأمر، لم أشتبه في أي شيء يتعلّق بها يومًا. «أتريدين مني مرافقتك؟»، سألتُها، وأنا أخشى منها الموافقة. «بالطبع لا»، هكذا أجابَتني. تركَت البيت في نظام مثالي، ولم تأخذ أي شيء. أعني، لم تأخذ إلّا منفضة الغبار.

لم أعانِ كثيرًا في حضورها الأخرس. زد على ذلك أنها قد أعدَّتني من أجل لقاء آخر، أقصى نقيض اللقاء الذي جمعني بها. **(وقفة، يتبعها شرود)**: لا أدري إن كان يجدر بي الحديث عن هذا، فمحاضرتي تتناول موضوع المطر! أشرد في الحديث أكثر مما ينبغي. ولكن، ما المحاضرة إن لم تكُن شرودًا مُنظَّمًا؟

(وقفة، يتبعها تبدّل في الصوت الذي يأتي الآن بنبرة مُحبَطة).

أذكر اللحظة التي توعَّدَتني فيها سوليداد بتخريب كتاب. راحَت تناديني حتى أذهب لتناول العشاء، غير أنني لم أسمعها. ما كنتُ أسمعها بوضوح قطّ. ليلتذاك، اتَّفق لأحد الفئران أن أطلّ بأذنَيْه على صالتنا، وإذا بسوليداد تقفز فوق أحد الكراسي وتصرخ كما لا تصرخ إلَّا ابنة زعيم تشتشميكا عظيم، وانطلقَت من حنجرتها جميع القرادات التي سبق أن ابتلعَتها في تلك المكتبة. ولكني لم أسمعها حتى في ذلك الوقت. كنتُ في حياة غير الحياة، في رحابة الأشياء المُتخيَّلة. رحتُ أقرأ مستغرقًا في نسيانٍ مثالي، وأتهاوى في قرارة ذاتي. ولكن المرأة التشيروكي قفزَت فوق الكرسي.

كانت الكتبُ تطمس ما يحيط بي من الأشياء. بينما استغرقَت سوليداد في الواقع، وانتبهَت إلى كل شيء بحدّة، كتلك الشخصية الوارد ذكرها في رحلات غليڤر، التي «كانت تسمع صوتَ سعال الذباب».

تملَّكها الذعر بسبب الفأر، فأرسلَت ذبابةً إلى كرسي القارئ الذي اتَّخذتُه لنفسي. امتثلَت لها الحشرات، وهي صاحبة العينَيْن الخليقتَيْن بمُكافِحة حشرات. راحت تطنّ الذبابة في أذني. حوَّلتُ عينَيَّ، فوجدتُ سوليداد هناك، فوق الكرسي، تطلق الصراخ. ولكن ذلك أهون ما في الأمر. لأنها أمسكَت بكتاب «نصوص في المعركة» لجان جاك روسو، وهدَّدَت بنزع صفحة منه. وإذا بالرجل الذي اضطُرّ إلى الهرب على متن عربة بسبب كتاباته، شهيد الحرية، الذي أدانته السلطة المُستبِدّة، جان جاك روسو الشهير، على وشك

أن يفقد إحدى صفحاته، في ظلّ الطغيان القائم في بيتي أنا. أطبقَت سوليداد أصابعها على الصفحة بلفتة احتقار غاضب، لفتة لا تخطئها عين، خليقة بمَن يهمّ بانتزاع الصفحة. كانت «نصوص في المعركة» على وشك أن تخسر معركة. وإذا بي أنقضّ عليها، وأنتزعها من مكانها فوق الكرسي، فتدحرجنا على الأرض. عضَّت أذني بمهارة لا شكّ أنها تُكتسَب في الصحاري، ثم نعتَتني بـ«الجبان»، وأنا الذي آثرتُ الدفاع عن الكتاب على الدفاع عنها هي. عند ذاك، أوضحَت لي أن لدينا فأرًا. «لماذا لم تخبريني؟»، سألتُها. «أمضيتُ نصف ساعة وأنا أصرخ»، أجابَتني. لم يكُن لعلاقتنا مغزى. وفي تلك الأثناء، اختفى القارض عن الأنظار من دون أن تكتشفه مصائدي.

أورثَتني سوليداد حيرةً لم تصِبني منذ ذلك الزمن، لَمّا كنتُ أدخل إلى المطبخ في صغري فأحسّ بحضور والدي في الظلام. كان هناك، جالسًا، من دون أن يضيء المصباح، أو يسمح لأحد بإضاءته، بينما هو يجترّ شيئًا في صمت. كره والدي رئيسه في العمل، وكره الاشتغال حمَّالًا، العمل الذي قوَّض ذراعَيْه، بل إنه كرهنا نحن أيضًا. لم أتمكَّن من رؤية وجهه، حتى وإن ألفَت عيناي الظلام. ربما كان السبب في ذلك خوفي من رؤية أمارات الكراهية والإحباط بادية على وجهه. أحيانًا أفكِّر أن ذلك الوجه الذي عجزتُ عن رؤيته، وأردتُ الهرب منه، كامنٌ في جميع الكتب التي قرأتها... وجه أبي الذي كره الآخرين، وكره نفسه أكثر من كل من عداه، من دون أن يدري ما العمل ولا إلى أين الذهاب، وهو الغارق في

المطبخ، بينما أسرته مستغرقة في النوم. لا تحدَّثتُ إلى أبي يومًا، ولا عرفتُ كيف أتحدَّث إليه.

أشتغلُ بترتيب مكتبة. وألقي المحاضرات. غير أنني لم أدرِ يومًا كيف أتحدَّث إلى أبي. أعتقد بأن الأشياء كلها مُتَّصلة بعضها ببعض.

لم يكُن صمت سوليداد شديد الوطأة، وما كان يجب كسر ذلك الصمت. «تروقينني متى سكتِّ، إذ تصبحين كالغائبة»... مرة أخرى، نيرودا. كانت الحياةُ عند نيرودا غرقَ المرء في ذاته. أحتفظ بذكريات طيبة تركَتها سوليداد، ولكن الفأر قد قرَّب كلًّا منا إلى الآخر بطريقة خاطئة.

(يبدو أنه يتوجَّه بالحديث إلى أحد الحضور).

أنا مثلك، أكره الفئران، وإن تسلَّيتَ أنت بها أكثر مما أفعل. لا أدري إذا كان يجب عليَّ أن أقولها، ولكنه أمر شخصي، لعلّك عشتَه في واحدة من حيواتك. فكلنا يعيش أكثر من حياة، في خاتمة المطاف.

أما المواجهة الجسدية التي دارت بيني وبين سوليداد، فلقد أعدَّتني لمداهمةٍ جامحة في الليل. إن اللقاء الجنسي الذي يهدف إلى المصالحة أشدّ جموحًا من الجنس بالاتفاق. ولكنها كانت مُصفَّحة.

لم ترتدِ البيجامة. بل كانت تلتحف بالغطاء كالتشيروكي المُكفَّنة. وفي تلك المرة، لم أجد طريقة واحدة لنزع الغطاء عنها. إذ كانت مُتيبِّسة، جامدة، تعاني في قرارة نفسها، بما لها من قدرة عظيمة على الإمساك بزمام الذات. أما أنا، فخرجتُ من بئر القراءة، ورحتُ أصارع امرأة من شعوب الأپاتشي، فأحسستُ بها تعضّ أذني، وشعرتُ برغبة في مشاركتها الفراش. أي صنف من القرَدة العليا أكون؟!

لم أحبّها بتلك الطريقة دومًا. فالطباع تتقلَّب كما يتقلَّب الطقس. ولقد حظيتُ بلقاءات في أجواء مختلفة.

«كلّنا يحتفظ بشيء من أجل أمسية ماطرة». أين قرأتُ هذه المقولة؟ يجب عليَّ إدراجها في المحاضرة. ولكن الاقتباس مختلف عما أوردتُ في واقع الأمر، إذ يقول: «لقد استغلّ ذلك الشيء الذي تحتفظ به كل امرأة من أجل أمسية ماطرة». العبارة لكاتب إنجليزي، وأنا على يقين من ذلك. إذ ينهمر المطر بغزارة في إنجلترا، فتغدو نزوات النساء رهنًا بالسحب. أعتقد بأن الأمر يؤثّر حتى في الرجال. ولكن ربما ابتلّ الرجل، فلا يسبغ عليه البلل حسنًا. أما المرأة، فلطالما أضفى عليها المطر شيئًا، ذلك أن المطر للمرأة كالمعمودية.

تعرَّفتُ إلى لاورا وقد ابتلّ شعرها. مضَت تبتسم وكأنها غير مكترثة بالبلل الشديد، بينما انسدل شعرها الأسود الرطب على وجهها كما تنسدل أغصان النبات، فقدَّمتُ إليها منديلًا. أنتمي إلى آخر الأجيال التي كانت تحتفظ بالمنديل إذا خرجَت إلى الشارع. مددتُ إليها المنديل، الذي شاء حسن الحظّ أن يكون نظيفًا، فمسحَت به شعرها في رقّة، وكأنها تتلمَّس ظلًّا.

كانت لاورا قد ذهبَت إلى المكتبة للبحث في قسم النصوص المُقيَّدة، بتوصية من مينديبيل البدين. راق لي أن امرأة في رهافة الأطياف تريد مطالعة كتاب شديد الثقل. رأيتُها تقلب صفحات، صفحات قديمة إلى الحدّ الذي جعلها تبدو كالجلود. «أيمكن للملاك أن يسلخ جسدًا؟»، سألتُ نفسي، وأنا الذي قد وقعتُ في حبّها.

جرى الأمر كما ورد في فقرة لكورتاثار جاء فيها: «إن ما يُطلِق

عليه كثيرٌ من الناس «حبًّا»، يُقصَد به اختيار امرأة والزواج بها».
وذلك ما كان بيني وبين سوليداد، إذ اختار كلٌّ منا الآخر كما تُختار قطع الثياب.

«ولكنك لا تختار بياتريس[1]، ولا تختار جولييت. أنت لا تختار دفقة المطر التي سوف تغرق فيها حتى أذنَيْك وأنت خارج من حفل موسيقي»، كما قال كورتاثار.

وذلك ما شعرتُ به حين رأيتُ لاورا. لم أختَرها، بل إنني وقعتُ في حبّها، وهي التي انهمرَت فوق رأسي أمطارًا.

شعرتُ بهالة مضيئة تلمسني، وبريق يوقظ في نفسي طاقةً لم أشتبه في وجودها. لقد أشرقتُ، أيها السيدات والسادة! حينذاك، كانت سوليداد قد رحلَت وأخذَت معها منفضة الغبار منذ أمد بعيد.

سألتُ عن اسم الإلهة، التي كان لها اسم مُلهِمة الشاعر بترارِكا، فبدا لي تشابه الاسمَيْن علامة، وإن كان أيّ شيء سيبدو لي علامة. إنما الحبُّ مُترجِمٌ كثير الهواجس.

سوف أعفي الحضور من تفاصيل توتّر الأعصاب الذي أصابني. ويكفينا العلم أنني قد ارتبكتُ، فتعثَّرتُ، وتلعثمتُ، وجعلتُ أحكّ وجهي بطريقة تراءت لها فاتنة. كنتُ هشًّا. جاءت

(١) بياتريس دي فالكو: امرأة إيطالية يُعتقَد بأنها معشوقة الشاعر الإيطالي دانتي ومُلهِمته. (المترجم)

لاورا من ملاذٍ أكاديمي، حيث كان زميلها الأضعف ثقافةً يترجم عن اللغة اليونانية القديمة. وعلى الرغم من ذلك، حالفني حظُّ الشاردين، فسقطتُ عند قدمَيْها وأنا ماضٍ إليها ببعض المُجلَّدات التي كانت ملكًا لنوَّاب الملوك فيما مضى. رأتني على الأرض، فعاجلَتني بابتسامة ساحقة.

أضعفَت القراءةُ بصرها، مع أنها لم تزَل في مقتبل العمر إلى حدٍّ كبير، فكانت إذا خلعَت النظارة تنظر إليَّ وكأنني سمكة في حوض، سمكة قريبة من الزجاج، تحاول السباحة تجاهها. راق لي كيف تراني من دون أن تركِّز بصرها عليّ، وكأنني منعزل في حوض الأسماك حيث كنتُ.

(يبدو أنه يتوجَّه بالحديث إلى أحد الحضور في القاعة).

لقد اختارَتني كما يختار المرء كتابًا في المكتبة. لا أدري أي صنف من النصوص كنتُ عندها. ولكنها، ذات مساء حاسم، مضَت بي إلى فندق قريب، بتلك العبارة الواعدة: «إن لم يبدُ لك رثًّا بالدرجة الكافية، فدعنا نبحث عن فندق آخر».

(يشرب ماء).

كنتُ رهينتها، رهينة العشق. معها عرفتُ لذة جسدية لم أظنّها مُقدَّرةً لي. «لا أحد يملك يدَيْن بتلك الرهافة، ولا حتى المطر»، كما جاء في بيتٍ للشاعر كامينغز. كم كنتُ أودّ الإحساس بهاتَيْن اليدَيْن الآن على ظهري! كانت يداها وكأنهما ربتة من ماء.

تعلَّمتُ كيف أعشق لفتاتها. كانت أصابعها تجثم فوق الطاولة، فلا تعود هناك طريقة أخرى سوى طريقتها في لمس الطاولة. أما الحركات التي تبدو عادية إذا جاء بها الآخرون، فكانت إذا بدرَت منها وجودًا مُطلَقًا، ومبدأً من مبادئ الكمال. كنتُ أراها تعقد رباط الحذاء أو تطوي المنديل الورقي كمن يتأمَّل بشارةً. عشقتُها بقوة مجهولة، لا يخجلني الاعتراف بها. غير أنها لم تهتمّ بي إلَّا اهتمامًا جزئيًّا.

لستُ بالرجل الوسيم، وأفتقر إلى ذلك المغناطيس الذي لا تُكشف رموزه، المغناطيس المدعو «كاريزما». كما أنها لم تكُن بالفتاة

التي تخلب عقلها اليخوت والقصور، على إعجابها بالمقتنيات الفكرية، والوجاهة التي يتميَّز بها أصحاب العلوم الفريدة من نوعها. وأنا لستُ رمزًا من رموز الفكر، ولا رياضيًّا يوقظ الحماسة البدنية المُتمرِّسة. لا أدري أي شيء رأت في شخصي، غير أنها لم ترغب إلَّا في علاقة جسدية. «أما فيما عدا الجسد، فلا شيء»، هكذا قالت لي.

لعلّها رأت في ارتباكي شكلًا من أشكال الصدق. وهي التي سئمَت الحذلقة الرفيعة التي ميَّزَت زملاءها. أمامها، تجاوَب جسدي بصدق المُحِبّ. جمعنا اتفاقٌ مثالي باللمس، فلم ترغب في شيء واحد أكثر مما كان بيننا.

لم تقبل الذهاب إلى بيتي. كما أننا لا ذهبنا إلى مطعم ولا تجوَّلنا في منتزه قطّ. لم أعرف عنها تلك الأسرار الصغيرة التي يعرفها العشَّاق بعضهم عن بعض. لم أدرِ ما نكهتها الأثيرة، ولا عدد ملاعق المُحلِّي التي تضيفها إلى الشاي.

ذات يوم، عقَّبَت بقولها: «إن لقاءاتنا ساحرة. لماذا تريدها أن تصبح عادية؟»

أي شيء قد يعبِّر عن الحالة المعنوية التي كنتُ فيها آنذاك؟ بيتٌ للشاعر ڤرلان: «يذرف قلبي الدموع كما ينهمر المطر في المدينة». أجل، كان قلبي يبكي. أعرف أن في تلك العبارة ضربًا من المبالغة. بَيْد أنها حقيقية أيضًا، فالحبُّ مُتعطِّش إلى المُطلَق. وأنا لا أقصد

ذلك الولع بالتملُّك الذي يتَّسم به الحبّ، وإنما حاجة المُحِبّ إلى اقتسام كل شيء والتعرُّف إلى الآخر قدر الإمكان.

اتَّهمني ميندييبل البدين بمعاملة سوليداد كما تُعامَل الخادمة. مع أنها كانت هي طاغيتي! التي لم تمنعها ثقافتها الضحلة من السيطرة عليّ. أما لاورا، فجرَّعَتني عقابًا راقيًا، عذابًا شهيًّا، لا يُحتمَل، عذاب السعادة المنقوصة دومًا. أذاقَتني لذَّةً استثنائية، ولكنها منقوصة دائمًا. في حين قنعَت هي بذلك. ورأت النزر اليسير الذي قدَّمتُه إليها كافيًا. هل أرادت أن تثبت أنه حتى الرجل قد يكون مثارًا للرغبة؟ كلا، بل إنها كانت بعيدة عن ذلك الانتقام النسوي البسيط. أرادَت مني البقاء في منطقتي الحقيقية، منطقتي الصادقة، حيث لا أملك أسرارًا، حسبما قالت لي. لم ترغب في رؤية نقائصي، والتعرّف إلى إصابتي بالعصاب، وفتح نافذة مُطِلّة على نزواتي. عرفَت بالحدس أن هذا الارتباك الجسدي الساذج، وهذه الطريقة الفوضوية في التقاط أزرار الثياب، لا يتَّسم بهما إلَّا شخص ذهنه في غاية الاضطراب. لم ترغب في التعرّف إلى المياه العكرة التي تفسِّر رجفاتي البدنية الفاتنة. «أما فيما عدا الجسد، فلا شيء»، كان ذلك هو الشعار الذي اتَّخذَت لنفسها.

وأنا لم أتمكَّن من دحض شعارها. أقرّ بأنني لستُ ودودًا على الدوام، إذ تنتابني الهواجس، وأنزعج بسهولة. أضيق بغالب الناس من الوهلة الأولى. وأكره الجهل، كما أشكّ في أولئك الذين يحسبون أنفسهم على دراية بالأمور. يشقّ عليَّ التخلّص من الأفكار الثابتة.

ولا أستطيع رؤية رجل ينتعل صندل الأواراتشيه التقليدي. أحترمه إن كان فلّاحًا. وإلّا، فإنني أحس نحوه بنفور لا يفوقه إلّا النفور من مشهد صندل الأواراتشيه فوق الجورب. تروقني أقدام النساء، وإن كنتُ أمقت الوقاحة الفجّة التي يُعرِّي بها الرجل أصابع قدمَيْه. أعجز عن احتمال أشياء مفرطة الكثرة. لو قطع أحدهم السباغيتي بالسكين، أكاد ألقي صحني في وجهه.

لستُ مُسلّيًا. كما لا أجيد الحديث عن الأفلام، ولا أتقن سرد حكايات عن أسفاري، لأسباب من بينها أنني لا أذهب إلى السينما ولا أسافر.

ولكن المزاج السيئ في حاجة إلى السُّلطة حتى يلقى قبولًا. يتقبّل الناس من المُفكِّرين العظام أو الفنانين الوثّابين أن يكونوا أوغادًا، بل ويتوقّعون منهم ذلك، لأن رهافتهم الراقية عاجزة عن الانسجام مع العالَم. ولكني لستُ نابغة، بل إن هواجسي تليق بمَن يفرط في التفكير وهو لا يملك فكرًا أصيلًا. عرفَت لاورا بأمر ارتباكي الذي يسهل احتماله، ارتباك أمين المكتبة الذي يستعين بالكتب حتى يتعثّر في سيره، غير أنها لم ترغب في الدخول إلى أروقة هواجسي المعتمة.

«أما فيما عدا الجسد، فلا شيء». لاحقَتني تلك العبارة المقيتة طوال العلاقة التي جمعَتنا. حتى جاء يوم، يوم ماطر، لو توخّينا الدقة، عثرتُ فيه على تلك الكلمات بين طيّات أحد الكتب. لقد

استشهدَت لاورا باقتباس أدبي، لاورا التي احتفَت بجسدي وأبَت التعرّف إلى مكنون ذاتي. العبارة مُستقاة من رواية للكاتب ليدو إيڤو، تقول فيها إحدى العاهرات: «أما فيما عدا الجسد، فلا شيء»، وهي صاحبة المهنة التي تُعرَّف بأنها مهنة لا تسمح لها برؤية زبائنها خارج الفراش. لم أتمكَّن من وضعها هي ومعشوقتي في كفة واحدة، فلا بدّ أن الأسباب التي حدَتها إلى الفصل بين العقل والجسد أشدّ تعقيدًا.

لقد سمحَت لنفسها بترف الاستشهاد باقتباس أدبي لتبقيني بعيدًا عن عالَمها الداخلي. سألتُ نفسي عما إذا كانت لها عبارات أخرى من الممكن الإشارة إليها في الهوامش (ربما تلك العبارات التي بدَت أكثر صدقًا مما عداها، وليدة النشوة الجسدية).

كانت لاورا كتابًا عانقتُه وأنا لا أدرك له مغزى، كتابًا فريدًا، ذا قيمة عظيمة، كُتِب بلغة مجهولة. ولأنني لم أشاطرها البقية الباقية من حياتها، فلقد شعرتُ بأن في حوزتي كتابًا لا تكشف رموزه. لم أكتفِ بتجليده المُتقَن، وطباعته الجذّابة، ورسومه المُنمنمة. بل أردتُ أن أقرأ لاورا!

هل تمكَّن من قراءتها آخرون؟ شعرتُ بغيرة لا تُوصَف من الشخص القادر على التعرّف إلى ذكرياتها، وحكاياتها، ونمائمها.

ذهبتُ لرؤية مينديبيل البدين مُتعلِّلًا باستعادة بعض الكتب التي أعرتُه إياها. في هذا البلد يعرف أحدنا الآخر، نحن القرَّاء

الجادين، إلى الحدّ الذي يفضي بنا إلى الشعور بالخوف بعضنا من بعض.

ليس من السهل أن تعير كتبك إلى مَن يحبّها بالقدر الذي يمنعه من ردّها إليك. بين فقدان الصداقة وفقدان الكتاب، فكلُّ عاشق للكتب يفضِّل فقدان الصداقة.

استقبلني البدين في الإستوديو الخاص، بالويسكي المُعتَّق ثمانية عشر عامًا، ذلك الذي لم يصبّ لي منه إلَّا قطرات قليلة، في تقتير. لطالما أردتُ أن أكون بدينًا. أعرف أنها أمنية تافهة، ولكني مُعجَبٌ بالرجال الراضين عن أوزانهم، أولئك الذين يكتسبون هيئةً مكتنزة لا تقبل التفاوتات. إذ يُعَدّ البدين المُثقَّف أكثر إقناعًا من الرجل الرشيق، لأن البدانة تبدو وكأنها إدراك الحكمة. أما نحن، أصحاب القوام النحيف، فنتشرَّب الأشياء وليس لدينا ما يدلّ على ذلك. البدانة تسبغ على رجال المجتمع وقارًا، ثم يكتمل وقارهم بالصلع، لأن الرأس اللامع يضفي على صاحبه جلالًا. أرغب لنفسي في ذلك المزيج الذي يُعَدّ معيبًا في أوساط أشدّ محدوديةً: الصلع والبدانة.

أما مينديبيل البدين، فلقد وصل بهيئته إلى حدّ الكمال حين أضاف عيبًا ثالثًا إلى ما سبق: إذ وضع رقعةً على عينه. وبات ينظر كما ينظر كائن السايكلوب. بتركيز، ومغالاة في الطلب. فضلًا عن ذلك، كان البدين يستحقّ المكافآت، فرؤيته إذا تلقَّى شيئًا تُدخِل البهجة

إلى النفس. كان يظهر في الصور وقد تملَّكَته سعادة تنتقل بالعدوى، وكأنه حيوان الفظ البحري المُقدَّس. بجواره، بدونا أقزامًا.

إنه العلَّامة الذي تمكَّن من إخفاء علمه. أتقن اثنتي عشرة لغة، واستطاع أن يلزم الصمت بها جميعًا. أُطلِق عليه «آخر علماء الآداب القديمة»، ولم يكتسب ذلك اللقب بسبب كتاباته، وإنما الحاجة التي تقضي بأن يكون أحدهم الأخير في مجاله. كان، كلما زاد بدانةً، زادَت كتبه نحافةً. وكان يبثّ في النفس سلامًا غريبًا، فهو يشبه كتابًا من كتب المراجع، لا حاجة إلى مطالعته، ولكن يحسن الاحتفاظ به، فمُجرَّد وجوده يبعث في الوعي شعورًا بالثقة.

تكلَّلَت مسيرته بأرقى الأنشطة الثقافية التي تقدِّمها هذه المدينة: إذ شُيِّع جثمانه في قصر الفنون الجميلة. لطالما قال إن قصر الفنون الجميلة أنجح دُوُر العزاء في البلد. عرف أنه سوف ينتهي هناك، في نعش بالغ الضخامة.

عندما ذهبتُ لرؤيته والحديث عن لاورا، كانت لا تزال أمامه خمسة أعوام في الحياة. «لقد أوقعَتك لاوريتا في الأسر»، بادرني قائلًا، قبل أن أتطرَّق إلى الموضوع. «حذار، فالحبّ وقعةٌ تورِث المرء خدوشًا. To fall in love... مَن أحبّ وقع. ولكني أفترض أنك بالأحرى تتعثَّر في سيرك»، ابتسَم بأريحية لا يملكها إلَّا رجل بدين.

هل أخبرَته لاورا بشيء عن سلوكي المُتوتِّر؟ رأيتُها وكأنها

امرأة كُتِبَت باللغة الآرامية، امرأة عجزتُ عن قراءتها، أكثر من أي وقت مضى.

ردَّ لي مينديبيل كتبي إلَّا واحدًا: ألف ليلة وليلة، في طبعة الكابتن ريتشارد بورتون. لأنه ما زال «يُصدِّق عليه» (ذلك المصطلح المتعالي الذي ولع باستخدامه، وإن لم يكُن البدين الممتلئ بالثقافة مُضطَرًّا إلى ذلك). اشتملَت الطبعة المذكورة على عدد قليل جدًّا من النسخ. كان لديّ واحد من المُجلَّدات الستة عشر التي تؤلِّف النسخة كاملة، الصادرة في طبعة اقتصرَت على ألف نسخة فحسب، مع تعهّد قانوني بعدم إعادة الطبع. ولقد قايضتُ ذلك المُجلَّد ببيت أبي المتواضع. لأن المكان حيث رأيتُ أبي يعاني في الظلام قد استحال نهرًا من الحكايات التي تتحدَّى الموت. كان شيئًا أقوى مما أحتمل، ولقد عرف البدين ذلك، فطلب أن يستعير مني المُجلَّد حتى يغويني، حتى يعرف إلى أي مدى يمكن أن تذهب عاطفتي.

كنتُ مدينًا له بكثير من الخدمات - العمل في المكتبة، ومئات الكتب من مجموعته الخاصة التي سمح لي بالاحتفاظ بها في بيتي طوال شهور - ولذا كان الامتناع عن إجابته إلى ما طلب مني يُعَدّ إهانة.

أحسستُ بغصّة في معدتي حين قال إنه يودّ لو احتفظ بألف ليلة وليلة لوقت أطول. ثم إنه حذَّرني قبل الوداع قائلًا: «في مثل عمرك، يُعَدّ خوض النزوات شيئًا محفوفًا بالمخاطر. لقد حطَّمت

لاوريتا قلوبًا كثيرة». والحقّ أنها بدأت تنتزع قلبي، وكأنها كاهنة من شعوب الآزتيك. بلغَت سعادتنا حدّ الكمال، ولكني أردتُ المزيد. أزعجني أن يعرف البدين أمورًا عنها، وأن يحدس بأمر علاقتنا الغرامية، أو حتى يحيط بها علمًا.

ما حاجة لاورا إلى إقامة هذه الحدود العصية على العبور؟ وما الذي يمنعني من العبور إلى الجانب الآخر من حياتها؟

(وقفة. ينظر إلى الساعة).

قرَّرتُ مواجهتها، ولكني استغرقتُ وقتًا طويلًا في ذلك. كان جمالها يسلبني الحجج، وكانت عيناها ترغمانني على الإقرار بصحة كلامها. لم أرِد فقدانها. ولم يسبق لي قطّ أن رأيتها ثائرةً أو مصابة بفورة من الغضب. بل إنها كانت تبدو أمامي في حالة عاطفية مثالية. لم أدرِ أي شيء قد تفعل في حال سئمَت مني. وأخيرًا، اتَّخذتُ قراري. يائسًا، نظرتُ إلى الملاءات المبعثرة في حجرتنا بالفندق، وبالقوة الداخلية الخليقة بأي بيروقراطي، قلتُ لها إنني: «لا أريد علاقة ساحرة. بل أريد علاقة عادية».

نظرَت إليَّ بطريقة مذهلة. وفاضَت عيناها العسليتان بالدموع، مُتأثِّرةً بسذاجتي. شقّ عليها أن تجد ما تقول. وأخيرًا تفوَّهَت ببضع عبارات من الذاكرة. وبكل هدوء، استشهدَت بالاقتباس التالي: «لا يمكنك أن تملك حصَّةَ اليوم والأمس معًا، لا يمكنك أن تعود إلى ما كنتَ عليه في الماضي، وتبقى كما أنت عليه الآن. لا بدّ من

الاختيار. السعادة واحدة ليس سواها. لا يمكنك أن تملك الشمس والقمر معًا».

ولكني أردتُ سعادةً واحدة، معها هي! أخبرتُها بذلك، وأدمعي تبلِّل أصابعها النحيلة. «لا يمكن لهذا إلَّا أن يضرّ بنا»، قالت مُعقِّبةً، ثم سألَت: «أتريدني أن أعرف حقًّا من تكون؟»، وربتَّت على شعري.

أصابَت في قولها: فلقد أردتُ امتلاك حكاياتها، وإن كان خيرًا لي ألَّا تعرف هي حكاياتي، فأنا كلّما أتيتُ على قطعة صابون، احتفظتُ بآخر جزء منها في علبة بلاستيكية، ذلك الجزء الذي لا ينظِّف شيئًا. وبعد شهور، أبلِّل البقايا كلّها وأصنع منها قطعة صابون ضخمة لا هيئة لها، غير مُحبَّبة كثيرًا إلى النفس، أوفِّر بها بعض النقود. لم يكُن على لاورا أن تعرف هذا الشيء. أقرّ بعجزي عن أن أكون مُحبَّبًا طوال الوقت.

غادرتُ الفندق مُحطَّمًا. تألَّمْتُ بشدة، حتى إنني لم أحاول العثور على الاقتباس الذي استشهدَت به لاورا في كتاب، وإنما بحثتُ عنه في غوغل، متاهة اليائسين. كانت الكلمات للمؤلف راموز، ففي كتابه «قصة الجندي» يطلب البطل من الشيطان سعادتَيْن، وفي ذلك الطلب كان الخرابُ الذي حلّ به.

عادةً ما تتحقَّق للمرء سعادتان مع شخصَيْن مختلفَيْن. أما أنا، فأردتُ سعادة واحدة تامة معها هي: أردتُ حياتها الجسدية،

وحياتها الأخرى... حياة الحكايات والرغبات والأحلام. وبدءًا من تلك اللحظة، جُنّ جنوني.

كان الخراب الذي حلّ بي كامنًا في كتاب، بطبيعة الحال. قرَّرتُ المضي في أثرها وأنا لا أعرف أن تلك المسيرة الطويلة ستفضي بي إلى شيء من نفسي. كانت تملك سيارة صغيرة، يابانية الإيحاء، تقودها بسرعة مخيفة، ولذا شقّ عليّ اقتفاء أثرها بسيارة أجرة.

لم أعجب لأنها اتَّجهَت إلى حرم الجامعة. صفَّت السيارة في المكان المُخصَّص للأساتذة، بينما ترجَّلتُ أنا من سيارة الأجرة، واقتفيتُ أثرها عن بعد. نظرَت إلى ساعتها وابتسمَت. لقد وصلَت قبل موعدها. جلسَت على دكة، تحت شجرة وارفة، ثم أخرجَت كتابًا: ألف ليلة وليلة، في طبعة الكابتن بورتون! لقد أعارها الكتاب مينديبيل البدين، ولهذا لم يردّه لي. هل كانت العلاقة التي جمعَتها بصديقي حسّية أيضًا، فضلًا عن علاقتهما البيبليوغرافية؟ لا أصدِّق، أنا في حاجة إلى الامتناع عن التصديق.

حتى أهدِّئ من روعي، وأحافظ على رغبتي الجارفة، ولا أغوص في قاع الجنون، فكَّرتُ أنها تودّ التعرّف إليَّ على نحو مختلف. فربما وصلَت إليها حياةُ الذائقة المُشترَكة -التي حرمَتني منها حتى ذلك الوقت- عَبْر ذلك الكتاب، الأكثر إثارة للأطماع من بين كتبي. كانت قراءة هذا الكتاب طريقةً من طرائق الحبّ. لماذا لم تسألني عن رأيي؟ لماذا لم تطلب مني الكتاب؟ ما الذي منعنا من قراءته معًا؟

أمضيتُ عدة ليالٍ في سهاد قبل لقائنا التالي. وعندما التقينا، كانت تحيط بعينَيّ هالات سوداء خليقة بشاعر من شعراء الأولترايسمو[1]. وجدتُ صعوبةً في إقامة طقوس الرغبة، لأن شغفي الجسدي قد تضاءل. نظرتُ إلى سقف حجرة الفندق التعيسة، ذلك السقف المُلوَّث بالبقايا الملحية، وأتيتُ على ذكر الكتاب الذي لم يردّه لي البدين. «يهمّني الجانب الحسن منك»، قالت، بطريقة غامضة.

كلّما زاد شقاء العاشق، اشتدَّت خيلاؤه، وشعر بالحاجة إلى الحضور في كل لفتة من لفتات المعشوقة. وبأنانية تبعث على الرضا، فكَّرتُ أنها تقرأ الكتب التي أعرتُ ميندييل إياها لتعرفني أفضل مما عرفَتني.

تأرجحَت أفكاري مثل البندول. وفجأة، دار في خلدي شيء آخر: إذ فكَّرت أن الكتب خير ما في ذاتي، لا رأيي في الكتب.

كنتُ أنصتُ إلى أنفاسها القصيرة وهي تغفو بين ذراعَيَّ، فضلًا عن خرير الماء المتساقط وهي تتبوَّل في الحمام، ونفخة البخار التي تنفثها لتنظِّف نظارتها، كمَن ينصت إلى الموسيقى الأكثر جمالًا.

ماذا عرفَت عني؟ هل كان في مقدورها أن تحدس بشخصيتي من خلال الأشياء التي رأتها في شخصي، وظيفتي بالمكتبة، ورجفة

(١) أولترايسمو: حركة أدبية ظهرت في إسبانيا عام ١٩١٨ اعتراضًا على الاتجاه الحداثي الذي طغى على المشهد الشعري في البلد منذ أواخر القرن التاسع عشر. (المترجم)

يدَيَّ أمام ابتسامتها، وميلي إلى حبّها كما لا يقدر على حبّها إلّا مَن توسَّم فيها أوجه الكمال.

صمَّمتُ على الحديث إليها عن الكتاب مثار الأطماع الذي كان في حوزتها: «في كل ليلة، تروي شهرزاد حكايةً لتنجو بنفسها من الموت. أما نحن، فنعيش ليالينا لننجو بنفسَيْنا من حكاية». جاءت العبارة سالفة الذكر طنَّانة، تنطوي على خطأ فنِّي، إذ كنا نلتقي في المساء، وليس في الليل. «ما دمتَ سعيدًا، فلستَ في حاجة إلى حكاية. اترك الحكايات لأولئك الذين يجب عليهم النجاة بحياتهم، ويسكِّنون آلامهم بالحكي»، هكذا أجابَتني. تقلَّبَت في الفراش ونظرَت إلى عينَيَّ: «هل أروق لك؟»، سألَتني. بدا من الجليّ أنها تروق لي. ومع ذلك، كانت تلك أول مرة تبدو لي فيها أنانية، مُغترّة بذاتها، واثقة بنفسها. لم أدرك أن السبب الذي جعلني أعتزّ بلفتاتها وأصواتها الخافتة تحديدًا أنني لم أعرف عنها المزيد.

عند ذاك، خُيِّل إليَّ احتمال آخر: لعلّها لم تكُن كاملةً إلى هذا الحدّ، ربما كان لها أربعة أبناء -أحدهم مصاب بالشفة الأرنبية- أهملَتهم كي تلهو مع أمين مكتبة. ربما كنتُ أنا دليل نقصانها! وأي دليل آخر أحتاج إليه؟

في مساء ذلك اليوم، نسيَت في الحجرة مظلَّةً سوداء، كغيرها الكثير من المظلَّات، أضفى عليها الموقفُ صبغةً جنائزية. غادرَت الحجرة على عجل، إذ كان عليها أن تلقي درسًا. في حين بقيَت المظلَّة

في الركن، وكأنها جواز سفر إلى عالَمها الآخر. شعرتُ برغبة في ردّ المظلَّة. فذهبتُ إلى الكلية وسألتُ عنها. استقبلَتني امرأةٌ تضع على عينَيْها نظارة ذات عدسات سميكة، قادرة على الشعور بالعطف نحوي. فوجئَت المرأة بأن أمينَ مكتبةٍ قد يتكبَّد مثل هذه المشقة حتى يردّ شيئًا لباحثة. وأخبرَتني بعنوانها.

تشبَّثتُ بالمظلة وكأنها تميمتي، ثم ذهبتُ إلى بيتها القائم في حيٍّ ناءٍ. لو كانت الرحلة أقصر، لوصلتُ وفي رأسي قدرٌ أقلّ من التكهّنات.

كانت إحدى النوافذ مضاءة. إنها نافذة القَدَر.

أيملك أحدهم مقاومة بريقٍ مُؤطَّر في الظلام؟ لك أن تتخيَّل ما فعلت: ألقيتُ نظرة حيث لا يجدر بي ذلك. فرأيتُ أسوأ ما يمكن رؤيته: كانت لاورا سعيدة، بعيدة عني، برفقة شخص يحبّها بكل وضوح. كنتُ أعرف تلك الأمارات التي تشي بالسعادة، لأنها تُظهِرها وهي برفقتي. كانت لها سعادتان حقًّا. ولكن، في سبيل بقاء السعادتَيْن على قيد الوجود، يجب أن تبقى كلٌّ منهما جزئية. ولا ينبغي لهما الاتحاد، غير أنني قد فعلت. بكيتُ، وجفَّفتُ دموعي بالمظلَّة.

بدأت تمطر بعد حين، فتساقطَت قطرات الماء على رأسي كما جاء في قصيدة للشاعر إليسيو دييغو، يقول فيها: «وكأن دموعَ الآخر تنساب على وجهي».

عدتُ، وأنا أمرّ بقدمَيّ فوق برك المياه الضحلة، وقد طويتُ المظلّة. وحين لم تعُد الضرورة تدعو إلى ذلك، فتحتُها. عرَّجتُ على بيت ميندييبيل. «لقد نسيَتها لاورا»، مددتُ له المظلَّة، ورحلت.

ولَّما مات البدين، وُهِبَت كتبه للمكتبة التي أعملُ فيها. إنها واحدة من أفضل مجموعاتنا. ولقد كُلِّفتُ بترتيبها، فبحثتُ أول ما بحثتُ عن مُجلَّد ألف ليلة وليلة، في طبعة بورتون. وكان هناك. بعد خمس سنوات، مررتُ بيدَيَّ على الصفحات التي تلقَّت ربتات لاورا المعشوقة. كنتُ أملك الحقَّ في استرداد المُجلَّد، ولكن من الصعب تفسير ملكيتي للنسخة المذكورة.

أفضِّل أن تبقى في المكتبة، في انتظار لقاءات أخرى.

لم أعاود رؤية لاورا، يا برونو. أفترضُ بأنها قد كشفَت أمري في بيتها، إذ أطللتُ من النافذة، لأنها حتى هي لم ترِد أن تعرف شيئًا عني. مكثتُ تحت المطر وقتًا أطول مما ينبغي، حيث أغرقَتني المياه، ولم أفتح المظلَّة. لعلّها ذعرَت حين رأت بقعةً مُتورِّدة بالقرب من الزجاج المُبلَّل... كائنًا رخويًا في مهبّ العاصفة. لعلّها حسبَتني في البدء لصًّا أو مُنحلًا، ثم عرفَت أنني أسوأ من ذلك: عرفَت أنني الرجل الذي يمكنه أن يحبّها شريطة ألّا يكون هناك. لقد أدركَت أنني قد خرقت العهد، وخنتُها. «لا بدّ من الاختيار. السعادة واحدة ليس سواها». وأنا لم أتعلّم الدرس.

أخذَت لاورا المظلّة من بيت ميندييل، بلا أدنى مفاجأة من جانبها، فلم تسأل مَن ذا الذي مضى بها إلى هناك. هكذا أخبرني البدين، بينما هو يجيل عينه الوحيدة وكأنه علّامة يعرف «أكثر من ذلك».

لم تعُد إلى المكتبة. وفي اليوم التالي، بعد الزيارة المشؤومة إلى بيتها، جاءني مرسالٌ يحمل السلَّة حيث كنتَ أنت يا برونو. «من أجل فئرانك»، هكذا جاء في البطاقة المُرفَقة، التي ذيَّلَتها لاورا بتوقيعها، بتلك «اللام» السائلة التي أتقنَت رسمها أيما إتقان.

كنتَ قطًّا صغيرًا جميلًا، بلون القهوة بالحليب، وقد لُفَّ حول عنقك شريطٌ أحمر وتدلَّى منه جرس. عرفَت لاورا أنك ستكون رفيقي المثالي. ولقد رأيتُك تضرب مفاتيح الكمبيوتر في سهوٍ مني، بفتور يليق بحكماء الصين. ذات مرة ملأتَ الشاشة كلها برقم ٧، ذلك الرقم الذي لا تعرفه، وإن حدستَ به. رأيتُك تمرّ بأفضل ما يضمّ هذا البيت من أرفف، وتنتقي مناطق أمين المكتبة المُميَّزة في كل مرة. رأيتُك وأنت تقرقر شاعرًا بالرضا بينما أقرأ. زِد على ذلك أنك تحلَّيتَ بالكتمان الشديد، فلم تُحضِر لي أيًّا من أعدائنا المشتركين، الفئران التي لا شكّ أنك تتصيَّدها. رأيتُك تخرج في الليل ماضيًا صوب حياتك الأخرى، تلك التي لا أحتاج إلى التعرّف إليها، ثم تعود وقد تبعثر شعرك، فلم يسفر ذلك عن وقوع مأساة، ولا دفعني إلى طرح أسئلة. رأيتُك تشرب كوب الحليب الخاص بي، ويروق لي ذلك. لا تدري أنك فانٍ، وأن السعادة لا بدّ أن تكون واحدة، ولكن لا حاجة بك إلى معرفة ذلك.

تشغل أمكنتي حين لا أكون في البيت. أعرف بسبب الشعر الذي تتركه على الأريكة وفوق وسادتي. أما حين أكون هنا، فتُذكِّرني

بتلك التي جاءت بك. إن شيئًا من لاورا يعيش فيك. بل إنك أنت الحياة التي لم أتمكَّن من اقتناصها في لاورا.

يروق لي النطق باسمك: برونو. أنطق باسمك، فأعرف أنني لستُ وحيدًا، وأن المكان خالٍ من الفئران، حتى وإن لم أرَك بعينيَّ، حتى وإن تأخَّرتَ في الوصول بما لك من أناقة صامتة. «تعالَ أيها القطّ، اقترب: فأنت فرصتي في مداعبة النمر»، كما قال الكاتب خوسيه إميليو پاتشيكو.

رسم أحدهم خطًّا تحت بيت الشعر سالف الذكر في المكتبة. أحيانًا أفكِّر أنها هي التي فعلَت. إذ تركَت «لامًا» على الهامش، «لامًا» سائلة. أرادت لاورا أن أربِّت عليها، فلا ألمس الشيء الكامن في قرارة نفسها، أي احتمال وجود النمر والمخالب والدماء والفتك.

لعلّي أبالغ يا برونو. فنحن -معشر القرّاء- نبالغ في ما نقول، وكثيرًا ما نختلق الروابط بين الأشياء. وبرغم كل شيء، فليس من الضروري أن تبرِّر موقفك، ولم يكُن ذلك من الضروري قَطّ.

يروق لي أن تقف كي تنصت إليّ، ساكنًا مثل قطعة زينة. تنصت إليَّ «كمن ينصت إلى وقع قطرات المطر»... «تمرّ الأعوام، وتعود اللحظات»، كما يقول أوكتافيو باث.

أردتُ أن ألقي عليك محاضرة، ولكني أضعتُ الأوراق. في بعض الأحيان، يحسن بنا ألَّا نعثر على الأشياء. فماذا يحدث عندما تعثر على مظلَّة يا برونو؟ لا يروق لك أن يصيبك البلل. وأنا أيضًا.

يتساقط المطر أفضل في المخيلة. ولقد عرف بعض الشعراء كيف يثيرون السماء. ذلك ما سوف تتطرَّق إليه محاضرتي، حين أتمكَّن من إلقائها أخيرًا.

ومحاضرتي، كما تعلم، تتناول موضوعَ المطر.

أراد لها أن تكون محاضرةً في المطر، فجاءت اعترافًا حميمًا وحديثًا صادقًا تحرَّر فيه المُحاضِرُ من القيود كما «يتحرَّر الشعراء من العالَم بالمطر»، وتطرَّق فيه إلى الكتب، «خير ما في ذاته»؛ وإلى الأدب، «ذلك المكان حيث ينهمر المطر»؛ وإلى الحب، «ذلك المترجم كثير الهواجس»؛ وإلى العالَم «القائم على قيد الوجود حتى يصير كتابًا».

رواية من روائع الأدب المكسيكي مُحمَّلة بكثير من الخواطر العميقة على الرغم من صغر حجمها والطابع الشيق الذي يطغى عليها، كما تتداعى فيها الأفكار التي يتنقَّل بينها الراوي بسلاسة ورهافة قلّ نظيرها.

المترجم

***

خوان بيّورو: روائي وقاص وصحافي مكسيكي. يُعَدّ من أفضل الأصوات الأدبية المعاصرة في أمريكا اللاتينية. حصل على عدد كبير من الجوائز الأدبية الرفيعة، من أهمها جائزة إرالديه، وأنطونين أرتاود، وخوسيه دونوسو، وجائزة ملك إسبانيا في الصحافة.



خوان بيّورو

محاضرة في المطر







www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com